إعجاز القرآن

بقلم الأستاذ السباعي السباعي بيومي
المدرس بدار العلوم العليا

تقدمنا فى العدد الماضى بكلمة عن أثر الاسلام فى العرب وفى لغة العرب، انتهينا منها على أن ذلك الأثر حساً ومعنى يرجع إلى الكتاب أولا وإلى السنة ثانياً، وقلنا فى تلك النهاية: « ومن ثم يجب أن تكون للقرآن دراسة مستفيضة تشرح ما له باللغة من علاقة، وفى شتى نواحيها من تأثير، ومن بعده تكون دراسة الحديث ».

لهذا اعتزمنا أن ننشر على قراء « المعرفة » بعض ما لنا من أبحاث عن القرآن من حيث إعجازه وفصاحته وبلاغته، بادئين منذ اليوم بالإعجاز، وكلنا ضراعة إلى الله أن يجعل رائدنا التوفيق.

كلمة عامة فى الإعجاز

بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم، يحمل إلى العرب - فى غير مواربة - دعوتهم إلى الخروج من دينهم والإقلاع عن كثير من عاداتهم وصفاتهم خروجاً يتجردون به عما كان يعبد آباؤهم، ويغيرون من أجله صفات الأشياء الواقعة بين أيديهم فيحلون كثيراً كان منعماً حراماً، ويحرمون أكثر منه كان طلقاً حلالا، ثم شاء أن تكون معجزته إليهم وفق ما كان للأنبياء عليهم السلام قبل، أى فى الباب الذى يعرفون لأنفسهم فيه نبوغاً ويدينون بأن لهم على ولوجه قوة واقتداراً، وهو باب الإعراب والبيان، فقد عرف ذلك عن العرب ولهم منذ القدم، ولم يزالوا يذهبون به قدماً، ويرقون فيه صعداً، حتى جاء الاسلام وقد بلغوا فيه المبلغ الذى لا يدانى، وعلوا فى الفصاحة والبلاغة علواً كبيراً، حتى عقدت لذلك أسواقهم وزخرت به مجامعهم وأنديتهم.

شاء الله ذلك فأنزل كتابه إلى محمد بأسلوب راعهم، وبيان بهرهم، يدعوهم إن صدقوا إلى الخروج عما هو لهم مما بينا، وإنه لعسير على النفس - وهى بنت الوراثة والعادة - أن تترك ما كان عليه الآباء والأجداد، وتخلص من عادات اختلطت فيها بالدماء واللحوم، فإن أبوا إلا طغيانا وكفراً وتكذيباً لمحمد فيما قال إنه من عند ربه وبهتاً كان لهم أن يقروا على ماورثوا، وعلى محمد أن يقبع فى داره تاركاً ما ادعى، ولكن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو شىء من مثله، إن كانوا صادقين.

تحداهم الكتاب هذا التحدى وأخذ يتنزل فى المقدار الذى به يتحداهم من القرآن كله إلى عشر سور إلى سورة واحدة فى عبارة فارصة وسخرية لاذعة، وهم ذوو الأنفة والحمية والغضبة الجاهلية المصرية ، واضعاً هذا الإتيان فى كفة والإلقاء إلى محمد بالسلام فى أخرى، وما كان محمد بذى العشيرة المتجمعة المتدافعة، ولا الكثرة الموالية المناصرة، فان عشيرته الأدنين كانوا عليه لا له، صامدين ضده لا معه، وهو ذلك الرجل الذى نشأ يتيماً فقيراً لا يملك من حطام هذه الدنيا شيئاً ، ولا من جاهها كثيراً ولا قليلا، سوى ما هيأه له المولى جل شأنه من استكمال صفات النبوة وتوافر ما تحتاجه هذه الدعوة ، فتركوا الإتيان بشىء من مثل هذا القرآن وهم فرسان الفصاحة ورجال البيان ، وفضلوا أن يبوءوا مخذولين مقهورين، تاركين حميتهم وأنفتهم يناهما ما لم يك يناهما من خزى وعار، وأنصارهم وشيعهم يتسللون إلى محمد لواذا مؤمنين، فما ذلك وعن أى شىء يكون؟ إنه للدليل الناصع والبرهان القاطع على أن أولئك القوم قد عجزوا عن التكلم بمثل هذا القرآن، ولو قدروا لتكلموا ولقارعوا محمداً الحجة بالحجة ، وأخمدوا حتى تسقط دعواه فى يده، وتقع نبوته صرعى لا ترى لها من مقيل .

على أن محمداً لم تكد تتجمع حوله الأنصار والأتباع، ويحس شيئاً من القوة المادية والمتاع، حتى انتقل من الدعوة باللسان إلى الدعوة بالسنان، فشن عليهم الغارات تلو الغارات، ولم يزل يغاديهم بها ويراوحهم، وهو فى كل ذلك يتحداهم . فلم يك منهم إزاء هذا الموقف الجديد فى خشونته، الثقيل فى شدة وطأته عليهم وقوته، الا ركوبه أيضاً كما يركب المضطر صعاب الأمور ويقبل المرغم عجزاً ما تعافه النفوس، ثم لم يزل يعمل فيهم السيف لإسعادهم وهم كارهون، ويقتل منهم الصناديد وهم راغمون، ويحتل عليهم الديار وهم وادعون، طيلة من الزمن كافية لإجراج الصدور، وإخراج ما عسى أن يكون فى الكنانة من سهام، فلم يجيبوا عن هذا التحدى على كثرة ما أخرجوا، ولم ينثروا من كناتهم غير الذى نثروا، وبذا حقت عليهم كلمة الإعجاز، وكان الذين آمنوا بها أضعاف من آمنوا بالسيف والقتال، وصح لكل إنسان أن يسوق ما قدمنا دليلا على الإعجاز إلى كافة الناس دون حاجة إلى التعرض للوجوه الفنية للإعجاز، ولا إلى شرط الوقوف على العلوم البلاغية فيمن يساق إليهم هذا الدليل، ولقد حدث الجاحظ فى هذا الموضوع ، قال .

بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم، أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً، وأحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته، دعاهم بالحجة، فلما قطع العذر وأزال الشبهة وصار الذى يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة، حملهم على حظهم بالسيف، فنصب لهم الحرب ونصبوا له، وقتل من عليتهم وأعمامهم وبنى أعمامهم

وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباحاً ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحدياً لهم بها وتقريعاً لعجزهم عنها، تكشف من نقصهم ما كان مستوراً، وظهر منه ما كان خفياً، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة، قالوا له. أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، قال. فهاتوها مفتريات، فلم يرم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامى عليه ويكابر فيه، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض، فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم واستجابة لغتهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم، وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره، وأبلغ فى تكذيبه، وأسرع فى تفريق أتباعه، من بذل النفوس والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال، وهذا من جليل التدبير الذى لا يخفى على من هو دون قريش والعرب فى الرأى والعقل بطبقات، ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور.

ثم تحدى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز أدناهم، فمحال أكرمك الله أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط فى الأمر الظاهر والخطأ المكشوف البين مع التقريع بالنقص والتوقيف على العجز، وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة فى الأمر الغامض، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة؟ وكما أنه محال أن يطيقوه ثلاثاً وعشرين سنة فى الأمر الجليل المنفعة، فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل إليه وهم يبذلون أكثر منه».

هذا ما قاله إمام المترسلين وزعيم البيانيين أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى الإدلال على أن عجز العرب عن مجاراة الكتاب كان حقاً واقعاً ، نقله التواتر الصحيح الذى لا يتطرق إليه شك ولا تأويل، ولقد رأيت إثباته هنا إدعاماً لما قدمت عن هذا العجز وتأييداً، فهو الحجة البالغة والبينة القاطعة لمن لم يرد الدخول فيما سنأتى عليه من تفاصيل الإعجاز وبيان الوجوه التى اعتورها فى شأنه العلماء، أو هو مقدمة لما سيكون إن شاء الله . ؟

السباعى السباعى